العدد (1565) السنة السادسة - الأحد (26) تمـوز 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

دعـــوة القوميـة العربيـــة بين الأصالـــة والتغريب

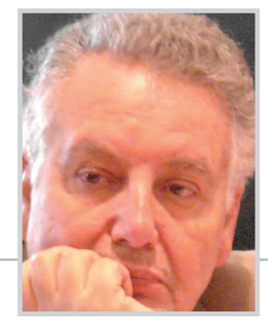

هل جاءت دعوة القومية من الغرب كباقي الدعوات مثل الاشتراكية والديمقراطية والعلمانية والعولمة.. الخ؟
وهل كل ما لدينا من مفاهيم سياسية جديدة مستوردة من الغرب؟
نستطيع أن نعتبر القرن التاسع عشر الذي قطف ثمار الثورة الصناعية وكان عصر نشوء وازدهار الرأسمالية قرن نشوء القومية العربية كما كان قرن نشوء القوميات الأوروبية.

شاكر النابلسي

بل إن القرن التاسع عشر لمّا كان قرن نشوء القوميات الأوروبية فإنه بالتالي أصبح قرن نشوء القومية العربية. ودليلنا على ذلك أن معظم المفكرين والمبشرين الذين نادوا بمفهوم القومية العربية في القرن التاسع عشر كانوا إما من العرب المسيحيين الذين درسوا في المدارس الأجنبية التي انتشرت في بلاد الشام في هذا القرن أو من العرب المسلمين الذين درسوا في الغرب، أو تعرفوا على أفكار الغرب السياسية في القرن التاسع عشر من خلال قراءاتهم. ذلك أن المثقفين الذين نادوا بفكرة القومية العربية وعملوا لها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين استقوا أفكارهم من الفكر الألماني فيما يتعلق بعنصر اللغة المكون للقومية، ومن فلسفة جوهان هيردر Herder (١٧٤٤-١٨٠٣) وجوهان فخته Fichte (١٧٦٢-١٨١٤) وارنست أرندت Arndt (١٧٦٩-١٨٦٠) على وجه الخصوص. حيث كان هيردر يقول بأن لا وجود للأمة بدون لغة، وأن التاريخ هو تاريخ الأصول القومية ونشأتها. كما اعتبر أرندت أن الناس هم الأمة، وأن الأمة لا ينظر إليها إلا من خلال حضارتها الموحدة.

كذلك فقد اقتبس واستقى المفكرون العرب أفكارهم في القومية من الفكر الفرنسي فيما يتعلق بالولاء والإرادة والوعي القومي المكوِّن للقومية، ومن الماركسية فيما يتعلق بـ "المصلحة" والمنفعة والدافع الاقتصادي كعنصر من عناصر البعث القومي.

لا عيب ولا حرج

وهذا لا يعيب إطلاقاً فكرة وحركة القومية العربية التي تبدو من هذا المنطلق فكرة إنسانية تأخذ بعض أفكارها من منابع الفكر الإنساني المجرَّب، بقدر ما يُحرج القوميين السلفيين والإسلاميين السلفيين الذين يريدون للأمة العربية أن تنهض بأفكارها وإمكاناتها الذاتية فقط، وأن تُعطي الآخرين دون أن تأخذ منهم، وأن تقف موقف القطيعة مع الآخرين، وأن تنسف جسور الوصل والحوار والتلاقح، وهو ما لم يتيسر لأمة من الأمم التي نهضت وأخذت طريقها إلى التقدم والرقي. ومثال ذلك محمد عمارة الباحث والمفكر الإسلامي المصري الذي يقول: "يجدر بنا أن نبحث عن موقف مستقل، فلعلنا نكتشف لفكرنا القومي منطلقاً متميزاً ونحن يلزمنا واستفادتنا من أخطائهم يعتبر بحد ذاته مصدر ثروة قومية مجانية كبيرة لنا، لأن الذين نأخذ عنهم دفعوا من جهدهم ومالهم ووقتهم وعرقهم ودمائهم وفكرهم الثمن الغالي لكي يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه الآن، ونحن نأخذ كل هذا - وما يصلح لنا بالطبع - دون ثمن ودون جهد، ونوفر على أنفسنا الوقت الطويل للتجريب.

العروبة في ينابيعها الأولى

كانت العروبة في ينابيعها الأولى تتجلى في مفهوم جمال الدين الأفغاني للعروبة. وكان مفهوم الأفغاني للعروبة، يتكون من عناصر اللغة والولاء للحضارة العربية بصرف النظر عن الأصول العرقية. وهناك تحفظ على هذا المفهوم لأنه بموجبه يصبح المستشرقون الغربيون وغيرهم ممن يجيدون اللغة العربية ويدينون بالولاء للحضارة العربية عرباً. والقومية العربية لم تكُ في دعوة الأفغاني عبارة عن جنس أو عرق بقدر ما كانت لغةً وولاءً استناداً إلى أقوال قدسية كثيرة في تمجيد اللغة العربية، ومنها هذا الحديث النبوي الذي يقول:

"أحبُ العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي."

وزاد الأفغاني على ذلك بقوله:

"العروبة ليست عرقاً ولا نسباً، وإنما هي لغة وآداب وتكوين نفسي وحضارة وولاء، وذلك كله أمر مكتسب وليس وقفاً على التوارث المحكوم بنقاء الدم الجاري من الأصول إلى الفروع."

فهل كان الأفغاني يقول بهذه المقولة عن القومية العربية لكي تناسب هذه المقولة وضعه كأفغاني يجيد اللغة العربية ويخلص للحضارة العربية، ويطمح أن يكون مفكراً عربياً لا أفغانياً ؟

فمحمد عمارة يؤكد بأن الأفغاني عربي نسباً وفكراً وولاءً. (أنظر: "تيارات الفكر الإسلامي" ص ٣١٢، ٣١٣) في حين أن باحثة أمريكية عثرت في بعض المدن الإيرانية على معلومات تقول بأن الأفغاني من مواليد فارس، وليس من مواليد الأفغان. وأنه كان شيعياً وليس سنياً. وأن لقب "الحسيني" الذي أضافه إلى اسمه أراد به أن ينتسب إلى آل البيت.(أنظر: محمد جبريل، هذه الأعمال الناقصة للأفغاني). ويزيد محمد عمارة، الذي يعتبر نفسه من مريدي الأفغاني، ومن مروجي فكره على ما قاله الأفغاني، فيقول:

"إن الرباط القومي ليس هو العرق، والجامعة القومية ليست هي الدين، وإنما هي العروبة بالمعنى الحضاري، تلك التي جمعت أقواماً مختلفي الأجناس والأديان، فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعاً عرباً في القومية والحضارة والولاء." (تيارات الفكر الإسلامي، ص٣١٤).

محمد علي باشا الكبير

الباشا والتطبيق السياسي للقومية

ومن الثابت أيضاً، أن محمد علي باشا (١٧٧٠-١٨٤٩) قبل الأفغاني، قد قام بالتطبيق السياسي لمعنى القومية العربية من خلال طموحاته في إقامة دولة عربية موحدة التي بدأها بغزو الحجاز ونجد (١٨١١-١٩) وبفتح السودان في عام ١٨٢٠ ، وباحتلال بلاد الشام في عام ١٨٣٢ ، وبغزو العثمانيين في عقر دارهم في عام ١٨٣٩ ، ودحرهم في موقعة "نصيبين" وكاد أن يطرق أبواب قصر "التوب كابي" في الآستانة بأعواد قصب السكر ويتعشى هناك على ضفاف البسفور، ولكن الدول الغربية حالت دون ذلك. ويقول ساطع الحصري " إن ثورة محمد علي خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ولو بصورة غير مباشرة لأنها أوجدت دولة عصرية قائمة في بلاد عربية، وفسحت بذلك ميداناً واسعاً لقيام نهضة فكرية وأدبية عربية." (محاضرات في نشوء فكرة القومية العربية، ص١٢٠.)

وقد أيّد كثير من المؤرخين هذا القول بعد أن احتل محمد على باشا السودان وبلاد الشام التي أيقظ فيها إبراهيم بن محمد علي باشا (١٧٨٩-١٨٤٨) فاتح الشام، القومية العربية في نفوس العرب، نتيجة لأحاديثه الكثيرة عنها، التي جعلتهم يستذكرون ماضي أمتهم المجيد. وهكذا ضم محمد علي باشا الشام إلى مصر بادئاً بتحقيق حلم القومية العربية الأول وهو الوحدة، وقال عنه المؤرخون المعاصرون:

وقال المؤرخ السوري المعروف محمد علي كرد : "لو نادى محمد علي باشا بنفسه ملكا على بلاد الشام ومصر وأرسل سفراء إلى عواصم الدول الأجنبية، وعقد المعاهدات الدولية، لاعترفت أوروبا له بالملك، رغم مقاومة بني عثمان."(خطط الشام"، الجزء الثاني، ص ٦٨).

دور المفكرين والطلبة في الحركة القومية

كان بعض الكتاب والأدباء من آل اليازجي وآل البستاني إضافة لعبد الرحمن الكواكبي، ونمر فارس وشبلي شميّل، وفرح انطون، وشكيب أرسلان. وكان هؤلاء المفكرون من الأعضاء البارزين في أول جمعية سرية قومية تشكلت في عام ١٨٧٥ ، حيث ظهرت أول حركة قومية عربية منظمة شكلها سراً خمسة من المثقفين الشوام الذين كانوا طلبة في الكلية السورية البروتستنتية في بيروت (الجامعة الأمريكية) ، حيث كان هؤلاء الطلبة يكتبون منشوراتهم بخط اليد ويوزعونها في الشوارع ويلصقونها على الجدران.(أنظر: علي المحافظة، "الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة"، ص١٣٠). وهؤلاء الطلبة جعلوا مركز هذه الحركة في بيروت أيضاً. ثم أقاموا فروعاً لها في دمشق وطرابلس الشام وفي السودان، وليس في مصر! وظلت هذه الحركة تنشط لمدة ثلاث سنوات إلى أن جاء السلطان عبد الحميد الثاني وقضى عليها. وكانت مبادئ وأهداف هذه الحركة هي:

- تحقيق استقلال سوريا ولبنان وفصلها عن الإمبراطورية العثمانية.
- اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في دولة الشام.
- إلغاء الرقابة على الصحافة والحريات العامة.
- تعيين أبناء الشام فقط دون غيرهم في الجيش.

وبذا، تكون هذه الجمعية السرية أول جمعية في التاريخ العربي القريب سعت بشكل علمي ومنظم إلى الدعوة القومية، ونفخت أول نفير في بوق القومية العربية في القرن التاسع عشر.

وقد لعب هؤلاء الطلبة دوراً مهماً في نشوء فكرة القومية العربية وازدهارها في أواخر القرن التاسع عشر أكبر بكثير من الدور الذي لعبه الأفغاني والذي ركز هذا الدور على مصر التي كانت لا تعير آذناً صاغية لدعوة القومية العربية، وذلك لقوة التضامن الديني والحس الديني فيها والقادر أكثر من الحسّ القومي العربي على تحريك الرأي العام كما عبّر بذلك واحد من رواد الفكرة القومية في القرن التاسع عشر وهو نجيب عازوري (١٨٦٠-١٩١٦). ومن المعروف أن الأفغاني أسس أثناء إقامته في مصر في عام ١٨٧٧ جمعية "مصر الفتاة" القومية على غرار الجمعية القومية "تركيا الفتاة" ، و"العربية الفتاة" كان من بين أعضائها مجموعة من المسيحيين الشوام منهم: أديب اسحق، سليم النقاش، ونقولا توما.

المسيحيون الأكثر حماساً للقومية

ومن الملاحظ أن دُعاة القومية العربية من المفكرين العرب المسيحيين في القرن التاسع عشر، كانوا أكثر حسماً وأوضح فكراً من دعاتها من المفكرين العرب المسلمين. وأن التفكير القومي و الفكرة القومية بدأت عند العرب المسيحيين قبل أن تبدأ عند العرب المسلمين. كما أن الكتاب والشعراء الذين سبقوا غيرهم في الدعوة المتحمسة إلى النهضة كانوا من العرب المسيحيين. وعلينا أن نلاحظ أن العرب المسيحيين الذين جاهدوا في الفكر القومي منذ انطلاقته الأولى في القرن التاسع عشر كانوا من المسيحيين الذين ترجموا الإنجيل إلى اللغة العربية في تلك الفترة، وهم الذين تعلموا اللغة العربية وأجادوها وكتبوا فيها شعراً ونثراً، وكانوا هم والمبشرون من الإنجليز والأمريكيين في طليعة الفئة المثقفة في تلك الفترة. وهم قد بدأوا أدباء وشعراء ثم انتهوا دُعاة قوميين. ومن هنا يصدق قول طه حسين في عام ١٩٥٨ في مؤتمر الأدباء العرب الثالث في القاهرة من أن "الأدباء هم بناة القومية العربية". ولا ندري أكان طه حسين يشير إلى هذه الفئة أم لا؟

عين على القومية وعين على الخلافة

كان المفكرون العرب المسلمون في أوائل القرن العشرين عيناً على القومية العربية والعروبة وعيناً على الخلافة الإسلامية العثمانية. ويريدون جمع المجد من أطرافه: سؤدد الترك ودين العرب، وهو ما لم يتحقق لهم. ويقول المؤرخ اللبناني وضّاح شرارة أن التيار القومي العربي لم يفلح في بلورة شخصية مستقلة، بخلاف القومية الإيرانية والقومية التركية. فعشية حركة الشريف حسين وامتدادها الفيصلي في سوريا كان رجل مثل عبد الرحمن الكواكبي لا يزال متردداً بين العروبة التي شرع يطالب لها بالخلافة الدينية وبين العثمانية التي لا يتردد أن يدين لها بالطاعة السياسية. ("تشريق وتغريب"، ص ٢٤١). ولعل هذا ما يفسر لنا فيما بعد العداء الشديد بين القوميين من جهة وبين الإسلاميين السلفيين والليبراليين من جهة أخرى والذين اعتبروا أن الدعوة القومية دعوة نصرانية. وأنها من بقايا الحروب الصليبية، ووسيلة من وسائل تسلط الغرب المسيحي على المسلمين لقيام معظم دُعاة فكرة وحركة القومية العربية وزعمائها في القرنين التاسع عشر والعشرين من العرب المسيحيين.

بكين في مواجهة صداع من نوع آخر في شينغيانغ

د. عبدالله المدني

وكما هو معروف استخدمت بكين في التعامل مع تلك المطالب مزيجا من سياسات الترغيب (في صورة الوعود المعسولة التي لم يتحقق منها شيئا) والترهيب (في صورة البطش الدموي على غرار ما جرى في " تيان ان مين " حينما قامت دبابات الجيش الأحمر بسحق المتظاهرين العزل) غير أن أحداث الأسبوع الماضي الدموية التي كان مسرحها مقاطعة شينغيانغ الشمالية الغربية أو ما كانت تعرف بتركستان الشرقية قبل دمجها بالصين في الأربعينيات من القرن المنصرم، جاءت مختلفة عن سابقاتها سواء لجهة المكان أو الزمان أو الأسباب أو أعداد الضحايا.

صحيح أن قضية هذه المقاطعة قديمة وتعود إلى الحقبة الماوية، وصحيح أن حكومات بكين المتعاقبة حاولت أن تخفي ما كان يجري هناك وتعطي انطباعا للخارج أن الأمن والنظام مستتبان فيها. غير أن الصحيح أيضا هو أن ثورة الاتصالات التكنولوجية فضحت المستور، تماما مثلما فعلت في أماكن أخرى مغلقة من تلك التي عاندت أنظمتها رياح العصر.

وقبل الغوص عميقا في الموضوع لا بد من مقدمة توضح أهمية شينغيانغ بالنسبة للصين والتي تفوق مئات المرات أهمية التبت مثلا، وبما يجعل استتباب الأمور فيها أمرا ملحا للصين كدولة واقتصاد. فهذه المقاطعة التي يوازي مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة ولاية كاليفورنيا الأمريكية ويسكنها نحو ١٠ ملايين نسمة من قوميات الايغور والكازاخ والقرقيز هي مهمة أولا بسبب ما في باطنها من ثروات معدنية ونفطية. حيث تشير أدبيات مؤسسة النفط الوطنية الصينية إلى أنها تحتوي على ١٧,٥ تريليون قدم مكعب من احتياطيات الغاز الثابتة، لكن المؤسسة أضافت انه بسبب الصعوبات الجيولوجية ووجود هذه الثروة في أعماق سحيقة، فانه من الصعب تقدير ما يمكن استخراجه بالفعل. وعلى أية حال هناك أدلة مؤكدة تقول بان المقاطعة تنتج سبع إنتاج الصين من النفط، وان في باطن أرضها ربع إجمالي الاحتياطيات النفطية الصينية، علاوة على أن بها أكثر من خمسي احتياطيات الصين من الفحم. و شينغيانغ مهمة ثانيا بسبب مرور أنابيب الغاز القادمة من الغرب إلى الشرق (أي من دول آسيا الوسطى إلى شرق الصين) في أراضيها. حيث تم تدشين خط أنابيب بطول ٤٠٠٠ كيلومتر من شينغيانغ إلى شنغهاي في عام ٢٠٠٥ . وفي أوائل العام الماضي تم البدء في العمل بمشروع خط أنابيب جديد موازٍ بطول ٩٠٠٠ كيلومتر من شمال غرب شينغيانغ إلى مدينة غانسو، وذلك بعد تزايد الطلب على الغاز لإحلاله مكان الفحم كمصدر للطاقة. ومن المحتمل البدء بمشروع خط أنابيب ثالث ورابع في الأعوام القادمة.

> شهد الحزب الشيوعي الصيني ومن ورائه ذراعه العسكري ممثلا في الجيش الأحمر منذ إحكام قبضته على البر الصيني في عام ١٩٤٩، تحديات كثيرة وكبيرة، بعضها في صورة المطالبة بالانسلاخ عن التراب الصيني وإقامة دولة مستقلة كما في حالة التبت منذ أوائل الخمسينيات، وبعضها الآخر في صورة المطالبة بالانفتاح السياسي والحريات واحترام حقوق الإنسان كما في واقعة ساحة " تيان ان مين " في عام ١٩٨٩.

و شينغيانغ مهمة ثالثا لأنها كانت على مدى العقود الماضية المكان الأفضل لإجراء التجارب النووية الصينية. وأخيرا فهي مهمة لأن بكين استثمرت فيها على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية الكثير من الأموال بغرض تنميتها وإعدادها لكي تكون منطقة استراتيجية تمارس من خلالها النفوذين السياسي والاقتصادي في دول آسيا الوسطى وبحر قزوين في حقبة ما بعد انهيار خصمها الإيديولوجي (الاتحاد السوفياتي). ويكفي كدليل على الجزئية الأخيرة أن نعلم أن شينغيانغ تحدها كل من كازاخستان وقرقيزستان وطاجيكستان وولاية كشمير المتنازع عليها ما بين الهند وباكستان والتبت ومنغوليا وأفغانستان وروسيا الاتحادية.

أما أسباب اندلاع موجة أعمال العنف الأخيرة التي أصيب فيها المئات ما بين قتيل وجريح، فلئن كانت من جهة انعكاسا وتجديدا للمطالب القديمة لسكان المقاطعة من "الايغور" المسلمين بالانفصال في دولة مستقلة على نحو ما حدث لأبناء عمومتهم في دول آسيا الوسطى من ذوي الثقافة التركية، فإنها من جهة أخرى تنفيس عن غضب طال كبته بسبب سياسات بكين التي اعتمدت نهجا شبيها إلى حد ما بما انتهجه الديكتاتور السوفياتي الراحل جوزيف ستالين أثناء الحرب العالمية الثانية مع الشعب الشيشاني. وبعبارة أخرى عمدت بكين منذ سنوات على تشجيع اثنية الهان البوذية والتي تمثل الاثنية الغالبة في الصين وبعدد يتجاوز ١,٢ مليار نسمة، على الهجرة إلى شينغيانغ مع منحهم الأفضلية في تولي الوظائف العامة وإدارة المشاريع الخاصة واقتناص الفرص الاقتصادية، الأمر الذي أثر في أوضاع السكان الأصليين من الايغور سلبا وحولهم إلى أقلية، بل دفعهم إلى مغادرة موطنهم للبحث عن الرزق في مقاطعات صينية أخرى. هذا عدا قيام بكين بالتمييز ضد الايغور واضطهادهم ومنعهم من أداء شعائرهم الدينية بحرية، بل وتقييد حريتهم في السفر خارج مدنهم، طبقا لتصريحات زعمائهم المحليين التي تتناقض مع ما يدعيه المسؤولون الصينيون من أن حرية العبادة والانتقال باتت مكفولة للجميع.

وليس من قبيل المبالغة لو قلنا أن هذا المنحى كان احد الأسباب التي أدت إلى ظاهرة التشدد والتطرف في أوساط الايغور، والتي انتهزتها الجماعات الإرهابية في أفغانستان وباكستان للتغلغل في صفوفهم من اجل تلقينهم أفكار تنظيمي القاعدة وطالبان، أو من اجل جذبهم إلى معسكرات التدريب في تورا بورا و وزيرستان و معسكرات حزب الله الآسيوي السرية داخل كازاخستان– على نحو ما اعترف به بعض من قبض عليهم وتم ترحيلهم إلى معتقل غوانتنامو قبل ان يتوزعوا ما بين باكستان وكازاخستان – أو من اجل استخدامهم كأدوات لتنفيذ العمليات الانتحارية والتفجيرية خارج الصين وداخلها على نحو ما حدث من هجمات في منتصف التسعينيات في مدن كاشغر وطورفان. غير أن الصين –بعدما تسببت جزئيا في هذا الخراب المتمثل في خروج الايغوريين لتلقي التدريب العسكري والفكر المتطرف – صارت إلى جانب تهديدها بضرب كل من تسول له نفسه المس بالأمن والنظام، تحاول تأليب المجتمع الدولي على الايغور بالقول أنهم إرهابيون، وأن الإرهاب عدو الأسرة الدولية جمعاء، وان الصين كانت في مقدمة الداعمين لمكافحة الإرهاب الدولي منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، وبالتالي فعلى الأسرة الدولية ان تقف معها اليوم، مثلما طالب الناطق باسم وزارة الخارجية الصينية في مؤتمر صحفي عقده للتعليق على أحداث "أورمتشي" (عاصمة شينغيانغ). ومما ردده هذا المسؤول الصيني وغيره في تصريحاتهم حول الأوضاع في الأخيرة لوكالة أنباء "شينهوا" الصينية، قولهم أن أعمال العنف والشغب في شينغيانغ ما كانت لتصل إلى هذا المستوى لولا ما يقوم به المجلس العالمي للايغور بقيادة "ربيعة قدير"، سيدة الأعمال الايغورية التي تعيش حاليا في المنفى بالولايات المتحدة الأمريكية، من بعد أن قضت عدة سنوات في المعتقلات الصينية بتهمة المشاركة في أنشطة انفصالية تهدد وحدة تراب البلاد. والجدير بالذكر ان المجلس المذكور يتخذ من الولايات المتحدة مقرا له ويحاول من خلال شبكاته واتصالاته مع أعضاء الكونغرس الأمريكي ونخب الحزبين الجمهوري والديمقراطي شرح انتهاكات حقوق مسلمي الايغور، والمطالبة بدعم فكرة الحكم الديمقراطي الذاتي في شينغيانغ (حيث اتضح أن لا واشنطون ولا أي من حلفائها الغربيين يريدون تصعيد الموقف مع بكين بالوقوف خلف فكرة انسلاخ مقاطعة شينغيانغ في دولة مستقلة، خصوصا وأن صين اليوم تمثل قوة اقتصادية وصناعية وتجارية وذات حضور بارز على الساحة الدولية، ما يجعل إغضابها أمرا صعبا). ولعل الأمر المختلف في أحداث الأسبوع الماضي عن أحداث عام ١٩٨٩ الدموية في ساحة "تيان ان مين"، ان الجيش الأحمر لم يكن مسؤولا مسؤولية مباشرة عن سقوط الضحايا في الشوارع إلا تأكد له أن الأمور بدأت تأخذ منحى دمويا رهيبا. – وإنما أصابع المسؤولية وجهت ابتداء إلى اثنية الهان – بغض النظر عما إذا كان هؤلاء تصرفوا من تلقاء أنفسهم أو كانوا ينفذون مخططا معدا سلفا – فعناصر الهان هم الذين خرجوا بالسيوف والسواطير والسلاسل لمطاردة الايغور للاقتصاص منهم، حينما قام الأخيرون بتظاهرة سلمية في "أورمتشي" احتجاجا على طريقة تعامل الحكومة مع اشتباكات حدثت في شهر مايو المنصرم بين عمال من الهان وآخرون من الايغور داخل مصنع للعب الأطفال في مدينة "شاوغوان" في ولاية "غواندونغ الجنوبية"، حيث قتل اثنان من العمال الايغور. وفي نظر بعض المراقبين لم تكن انتفاضة الهان الدموية (التي سرعان ما رد عليها الايغور بانتفاضة دموية مماثلة) بمستغرب في ظل تزايد افتخارهم واعتزازهم بقوميتهم وأصولهم والذي أدى إلى اتساع الهوة بينهم وبين مكونات الشعب الصيني الأخرى ممن يعتبرون أنفسهم ذوي ثقافة مغايرة وأصول مختلفة مثل الايغور و شعب التبت. بل لم تكن الانتفاضة غريبة بسبب ما يعتبره الهان من ارتباط الايغور بجماعات أجنبية متطرفة تسعى إلى تدمير كل ما أنجزته الصين من صعود في العقود الأخيرة.

مفهوم التنمية البشرية وأبعادها الإستراتيجية

جميل عودة

في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي القديم؛ كان هناك تصور سائد، لدى أكثرية البشر؛ يرى هذا التصور أن رفاه الإنسان والمجتمع إنما يتحقق بمقدار ما يحصل عليه الإنسان من الثروة؛ باعتبارها محور السعادة والتقدم..

إلا أن هذا التصور بدأ - في نهايات القرن الماضي- يتلاشى شيئا فشيئا؛ وذلك بعد أن تأكد أن الثراء وحده ليس الشرط الوحيد لتحقيق الكثير من الأهداف الاجتماعية والسياسية المهمة للأفراد والمجتمعات..هذا فضلا على أن حاجات الإنسان ليست كلها حاجات مادية، فالأمن، والعلم والثقافة، والمشاركة في تقرير الشؤون العامة، والحفاظ على البيئة ومكافحة التلوث البيئي، وطرد ارتفاع معدلات الجريمة والعنف، وغيرها من الأمراض، كلها ليست حاجات مادية بحتة.

لذلك، وفي منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، ساد الاعتقاد بان اهتمام علم اقتصاد التنمية، ينبغي أن لا ينصب على الرفاه المادي حسب، بل ينبغي أن يمتد إلى تحقيق مستويات ثقافية أعلى تتيح للإنسان أن يحيى حياة هانئة، ويمارس مواهبه، ويطور قدراته.

ومنذ ذلك الحين؛ بدا للجميع أن الرأسمال المادي، ليس هو وحده الضامن الحقيقي لرفاه وسعادة الإنسان، بل، لابد أن يكون هناك استثمار في الرأسمال البشري ذاته، وهو ما يُعرف اليوم باسم"التنمية البشرية". والتنمية البشرية؛ تعني من بين ما تعني أنها منهج للتنمية الإنسانية الشاملة، والتي تسعى إلى توسيع خيارات البشر، بهدف تحقيق الغايات الإنسانية الأسمى؛ بتجاوز المفهوم المادي للرفاه الإنساني، إلى الجوانب المعنوية والحياة الإنسانية الكريمة التي تشمل التمتع بالحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتوافر الفرص لاكتساب المعرفة والإنتاج والإبداع، والكرامة الإنسانية.

لقد حظي مفهوم "التنمية البشرية" بمكانة مميزة في الفكر التنموي، عبر أدبيات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي؛ وذلك منذ عمله الرائد بإصدار تقرير التنمية البشرية الأول، عام ١٩٩٠، ودأبه على تطوير المفهوم، واغنائه عبر التقارير الدورية التي واظب على صدورها. وحسب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي يتسع مفهوم التنمية لأبعاد ثلاثة هي:١. تكوين القدرات البشرية، مثل تحسين الصحة وتطوير المعرفة والمهارات؛٢. استخدام البشر لهذه القدرات في الاستمتاع، أو الإنتاج – سلعا وخدمات- أو المساهمة الفاعلة في النشاطات الثقافية والاجتماعية والسياسية؛٣. مستوى الرفاه البشري المحقق، في إطار ثراء المفهوم المبين.

وبهذا صار الفكر التنموي أكثر اهتماما بمسائل العدالة في توزيع الدخل وتحليل الفقر وأهمية الحاجات الأساسية لأفراد المجتمع. كما أنه نبه إلى أهمية التركيز على تراكم رأس المال البشري،. ودللت العديد من الدراسات على أن الإنفاق على التعليم- مثلا- يخلق عوائد اقتصادية تعادل أو تزيد على العوائد التي يمكن أن يحققها الاستثمار في الرأسمال المادي.

وفي ثمانينيات القرن الماضي؛ باتت المقولة المحورية في منهج التنمية البشرية، هي أن التنمية تعد عملية توسيع قدرات الناس لأكثر من كونها زيادة منفعة، أو رفاها اقتصادياً، أو إشباع حاجات.

وبهذا المعنى؛ تشكلت للتنمية البشرية أبعاد عدة:

١- التمكين: المقصود بالتمكين هو تطوير قابليات الناس بوصفهم أفرادا واعضاءا في مجتمعاتهم. أي لا ينبغي للتنمية أن تتحقق من أجل الناس حسب؛ بل ينبغي لهم أنفسهم أن يحققوها؛ فالناس الممكنون أقدر على المشاركة في القرارات والعمليات التي تصوغ حياتهم.

٢-الإنصاف: يؤكد مفهوم التنمية البشري على الإنصاف في بناء القدرات وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع؛ ولا يقتصر الأمر على الدخل المادي حسب، بل يتسع ليشمل إلغاء العوائق القائمة على أساس النوع الاجتماعي، أو العنصر أو القومية أو التحدر الطبقي، أو أية عوامل أخرى، تحول دون الحصول على الفرص الاقتصادية والسياسية والثقافية

٣-الاستدامة : وهو ما يعرف بالتنمية البشرية المستدامة؛ والتي تعني توفير احتياجات الجيل الحاضر من دون المساومة على مقدرة الأجيال القادمة على التحرر من الفقر والحرمان. وعليه يجب توفير فرص التنمية البشرية للأجيال الحالية والمستقبلية ومنع تراكم أعباء تتحمل تبعاتها الأجيال المقبلة: مثل الديون المالية الناشئة عن قروض خارجية أو محلية طويلة الأجل، والديون الاجتماعية الناشئة عن إهمال الاستثمار في تنمية القدرات البشرية، والبيئة، وغيرها.

٤-المشاركة : تعني أن يتمكن الناس باعتبارهم مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات من المشاركة في صنع القرارات؛ حتى يسهموا بفعالية في العمليات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي تؤثر في حياتهم.

٥-الحرية- تقول التنمية البشرية إن الناس ماداموا فقراء، وماداموا مرضى، وماداموا أميين، وضحايا أو مهددين بنزاعات عنفية، أو محرومين من الصوت السياسي، فهم لا يمتلكون حريتهم؛ وحيث إنهم لا يمتلكون حرياتهم فان التنمية البشرية تظل معطلة حين ذاك.

وعليه؛ يمكن النظر إلى التنمية بوصفها عملية توسيع الحريات الحقيقية التي يتمتع بها الناس. وتتضمن الحريات؛ الحرية ضد التمييز، والتحرر من العوز، والتحرر لتحقيق الذات الإنسانية، والتحرر من الخوف، والتحرر من الظلم، وحرية المشاركة والتعبير، والانتماء السياسي وحرية الحصول على عمل.

وبالتالي، ومن خلال جوهر أبعاد التنمية البشرية؛ نجد أن الإنسان لابد أن يكون الوسيلة والهدف النهائي للتنمية البشرية، ولابد أن تصب كل حصيلة انجازاتها لصالحه، فهو خليفة الله في الأرض وهو الذي كرمه وفضله؛ بقوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم..."

المصادر:

- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي- تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥
- التقرير الوطني لحال التنمية البشرية "٢٠٠٨ /عراق" بتصرف.

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@ yahoo.com